الفقر وتحدّياته

الأخت جِرمين عبُّود*

نتردّد دائمًا حين نتكلّم في الفقر، لأنّ هناك دائمًا مسافةً بين كلامنا وواقعنا، وقد نتحدَّث كثيرًا عن الفقراء والفقر، من دون أن تتأثَّر حياتنا بذلك.

ماذا نقول؟ وأيّ معالم نرسمها؟ ليس الأمر واضحًا... وليس هو بالسهولة التي نظنّها... إنّ الفقر، فقرَنا نحن المكرَّسين، هو تحدّ كبير، إن لم يكن التحدّي الكبير الذي علينا أن نعيشه في الألف الثالث. فإنّنا غائصون في عالَم يسوده السباق إلى التملّك والربح، في عالَم متميِّز بتوق جامح إلى الأموال، في عالم مادّيّ يسيطر عليه المال الذي يدير كلّ شيء ويبتّ كلّ شيء، في عالم استهلاكيّ يخلق لنفسه حاجاتٍ في كلّ دقيقة، ويتعرّض، في سرعة تطوّره، لفقد قِيَمه ويخلط بين كلّ شيء (الشخص البشريّ أو الغرض) - كلّ شيء يُستخدَم استخدامًا واحدًا... نستعمله ونطرحه ونبحث عن غيره -، في عالم يَفسد فيه الوضع الاجتماعيّ الاقتصاديّ يومًا بعد يوم، ولا يشبع فيه الغنيّ أبدًا، فيستغلّ الفقير الذي يغرق شيئًا فشيئًا في بؤسه، في عالَمِ انهيار عصبيّ فَقَدَ صفاءه وابتسامتَه وبهجة حياته.

(*) من راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات. معلّمة المبتدئات سابقًا. رئيسة الراهبات العاملات في المستشفى اللبنانيّ (الجعيتاوي)، بيروت. ومقالها مداخلة أدلت بها في أثناء اجتماع مجلسَي رؤساء الرهبانيّات العامّين والرئيسات العامّات في لبنان، الذي عُقِد يوم ١٩٩٩/٦/٦ في دير الراهبات المخلّصيّات بجون قرب صيدا.

ونحن مدعوّون إلى أن نكون في هذا العالم، لا أن نكون منه. وعلينا أن نشهد لمركز اهتمام آخر، وأن نساعد هذا العالم على قلب سلّم قِيَمه وعلى وجود مركز ثقله الصحيح.

وذلك التحدّي هو امتحان لنا، وهو حظّ سيدفعنا إلى التفكير وإلى جعل هويّتنا أصيلة. فإمّا نُخْفِق أو ننجح... طُرَّة أو نقشة، لا وجود لحلّ وسط، إنّ الأمر جذريّ على مثال دعوتنا. في أحد الأيّام، «حدَّق يسوع إلى كلّ واحد منّا فأحبَّه. وقال له: «واحدة تنقصك: إذهب فبع ما تملك واعطه للفقراء... وتعالَ فاتبعني» (مر ١٠/٢١)... نحن أمام جذريّة تامّة... فأَجَبنا مع القدّيس بولس: «مِن أجله خسرتُ كلّ شيء وعددت كلّ شيء نفاية لأربح المسيح. وما كان في كلّ ذلك من ربح لي عددته خسرانًا من أجل المسيح» (فل ٣/٧). إنّها اللؤلؤة الكريمة التي تدور حولها حياتنا الرهبانيّة: وجدناها، ولكي تتملّكها بِعنا كلّ شيء، ولكي نحافظ عليها نناضل كلّ يوم.

فما هي تلك التحدّيات التي يجب علينا أن نعيشها؟

+ إنّ تلك الجذريّة نفسها هي تحدّ يوجَّه إلى العالم الذي يكدِّس بلا نهاية، فإنّها تؤكّد أفضليّة الكيان على التملّك، لأنّ قيمة الإنسان بما هو، لا بما عنده، بحيِّزه الباطنيّ وقدرته على الاستقبال. فكلّما تجرّد، أفسح في المجال للّؤلؤة التي تملأه، وأفسح في المجال للآخر عزّ وجلّ وللإنسان الآخر...

+ إن كان فقرنا نحن المكرَّسين، قَبْل كلّ شيء، الاعترافَ بفقرنا الأنطولوجيّ الذي يدفعنا إلى الاعتراف بأنّنا خلائق ننال كياننا في كلّ لحظة من الربّ الذي نحن مرتبطون به وصائرون إليه، فعلى نهج حياتنا أن يقول للعالم إنّه ليس هو مصدر نفسه ولا غايتها.

+ وذلك التحدّي الموجَّه إلى الفقر الروحيّ هو تحدّي التطويبات. ولكن ما يأتي من الإنسان الباطنيّ يجب أن يسعى وأن يظهر في الخارج، علمًا بأنّ هناك جدليّة بكاملها بين الباطن والخارج، وإذا صحّ أنّ الخارج

ليس هو بشيء من دون الباطن، فإنّ الباطن يبقى هو أيضًا غير حقيقيّ من دون الخارج. فأعمال فقرنا المكرَّرة هي التي تجعلنا فقراء. صحيح أنّ الحياة الروحيّة لا تقتصر على وجهها الترويضيّ النفسيّ، ولكن لا وجود للتصوّف من دون الترويض النفسيّ.

إنّ الأزمة الاقتصاديّة الحاليّة تشدّد على ذلك التحدّي وتحثّنا مرّة أخرى على البحث عن كيفيّة عيشنا الفقر. ورد في الإرشاد الحياة المكرَّسة (الرقم ٨٢): «إنّ صِدق الاستجابة لمحبّة المسيح يدفع المكرَّس إلى العيش فقيرًا وإلى الوقوف إلى جانب الفقراء. وهذا ما يقتضي من كلّ جمعيّة رهبانيّة، وفقًا لموهبتها الخاصّة، تبنّي نمط حياة، شخصيّ وجماعيّ، بسيط ومتواضع ومتقشّف».

يعني عيش الراهب فقيرًا أن يُحسن التمييز بين الضروريّات والكماليّات، أن يحسن التمييز بينها في أدنى تفاصيل حياته اليوميّة. فكثيرًا ما نواجه مخاطر شيء من الترفّه. في الواقع، لا ينقصنا شيء، لأنّ حاجاتنا الأساسيّة تؤمّنها الجماعة دائمًا. ولكن هل نختار الضروريّات، بل ما لا غنى عنه بالأحرى، لئلّا نقع في الكماليّات؟ إنّ الانزلاق سهل، نظرًا إلى الحاجات الوهميّة التي يخلقها مجتمع الاستهلاك في كلّ دقيقة.

والكلام في نمط الحياة وفي الكماليّات لا يعني على الإطلاق البقاء في الخلفيّة أو بعيدًا عن جميع أنواع التقدّم العلميّ وعن التسهيلات التقنيّة التي يوفّرها العالم الحاليّ، إذ لا بدّ من إتقان لغة القرن للتمكّن من الاتّصال به وتبشيره وإيصال الرسالة إليه. وسائل المواصلات، والسيّارات، والهاتف، والتلفاز، والعقل الإلكترونيّ، والأنترنيت... قد يكون ذلك كلّه هامًّا بقدر ما يعدّ تميزُنا لا غنى عنه لرسالتنا.

على هذا المستوى، خَطَران يهدّداننا:

١) حذارِ الانجذاب بوجه غير واعٍ إلى المشاركة، شخصيًّا وجماعيًّا، في جهازيّات عدم مساواة وسيطرة. حذارِ الانجذاب إلى الترف والطراقة والترفّه، وإلى مَيل الذي لا يريد أن ينقصه شيء. إنّ عقليّتنا هي

التي تحتاج إلى أن تُعاد إلى بساط البحث، وأن تبشِّر مرّة أخرى لا بل أن تبشِّر بلا انقطاع.

٢) حذارِ المرض الذي يجتاح عصرنا، فيفرض الانغلاق على النفس والاكتفاء الذاتيّ الذي تخلّفه التقنيّة. فالعلاقات المتبادلة بين الأشخاص هي التي تتأثّر... واتّزان الإنسان بكامله هو الذي يتأثّر... كلّ واحد مسمَّر أمام شاشته ويعرّض نفسه لتقشاء وقته كلّه وجميع ساعات فراغه، على حساب حياته الاجتماعيّة والجماعيّة، على حساب احتكاكاته التي تبني شخصيّته... لم يعد يعيش إلّا بصحبة آلته.

يعني عيش الراهب فقيرًا أنّه يفكّر في صلته بالمال، فهل هي صلة تملّك؟ إنّ منطق المال هو منطق العالم الذي يتحدّث عنه القدّيس يوحنّا. فإنّ المال يمسي قياس كلّ شيء حين يحدّد قيَمنا ويضغط على علاقاتنا البشريّة... نعيش في هاجس التملّك. ونساؤل الراهب عن ماله هو تساؤله عن العلاقات التي يجعلها ممكنة أو يحطّمها، لأنّ الصلة بالمال ليست فقط صلة الراهب بالمال، بل صلته بالآخرين. وهذا ما قد يعبّر عنه بموقف عطاء وسخاء أو باستغلال وسيطرة.

يعني عيش الراهب فقيرًا أنّه يدير شؤون شخصه وقدراته ووقته وحتّى ماله إدارة حسنة. إنّ إدارة المال أمر مهمّ لأنّها تزيدنا استعدادًا لخدمة الفقير. فلا بدّ أن نعرف كيف نستخدم المال ونصرفه حيث يجب... أن نعرف أيضًا كيف نبحث عنه لتخليد الرسالة. لا بدّ للمسؤول أن يُحسن الإدارة لصالح الرسالة.

وأخيرًا، فإنّ التحدّي الكبير الذي كان، ولا يزال، هو الصرخة التي تُطلَق إلينا من كلّ مكان وبواسطة جميع أنواع التحريض: أعني الذهاب إلى الفقراء، والوصول إلى أكبر عدد منهم، حتّى لا يبقى فقير واحد إلى جانبنا، وإن اقتضى الحال، وجب علينا أن نتّخذ موقفًا وأن نعمل في سبيل قضيّتهم، إذ لا بدّ أن يكون فقرنا «علامة للقيمة التي يتمتّع بها الفقير في نظر الله». ولكن ذلك يقتضي أن نعرف مَن هم الفقراء وأين هم. فالفقير

ليس هو فقط مَن نقصه المال، بل هو الولد والمريض والمحتاج والمنبوذ... كلّ إنسان يحتاج إلى حضورنا وسلامنا وإصغائنا، وإلى قليل من حبّ الصداقة والرجاء... هذا هو المجال الذي يجب علينا أن نبذل أنفسنا فيه.

ليس طريق الفقر مرسومًا سلفًا، بل يجب علينا أن نكشفه. فإنّ الدعوة إلى الفقر تشقّ طريقًا لا ينتهي الإنسان أبدًا من السير عليه ومن اكتشاف سبيله.

إنّها سنة يوبيل تجسّد الكلمة، يوبيل ظهور فقر الله. كان غنيًّا فجعل نفسه فقيرًا من أجلنا و«أُرسل ليبشّر الفقراء ويُعلن سنة رضًا عند الربّ» (لو ٤/١٨-١٩). فيما نحن نُعِدّ سنة النعمة هذه، فلندَعْ أنفسنا تُصغي إلى النداء الموجَّه إلينا، لكي تزداد توغُّلًا في تكرّسها.

من منشورات دار المشرق